صقر قريش

ألف هذا الكتاب الأستاذ على أدهم

وهو من أدق التراجم وأوفاها.

الكتاب دراسة لحياة الأمير عبدالرحمن الأول الملقب بالداخل مؤسس الدولة الأموية بالأندلس.

لا تقولوا ما لنا وعبدالرحمن الداخل على الرغم من أنه صفحة من تاريخنا الوسيط، لقد تحسب الأستاذ على أدهم، هذا السؤال فقال فى مقدمته:

(أرجو أن يجد القراء متعة فكرية ورياضة أخلاقية فى تتبع روائع أخبار عبدالرحمن وغرائب همته. ومن يدرى فقد تكون حياتنا العقلية والأخلاقية التى يزدهينا فى كثير من الأحيان ما بها من قوة وخصب لا تزال تعانى عقابيل ما انتابها من العلل فى سالف الزمان، وقد يكون بها بعض الحاجة إلى قضاء أيام فى استنشاق هواء الربى الخضر والجبال الشم والتدفق فى أضواء الشموس الساطعة والحرارة اللافحة).

أضيف إلى قوله، أن هذه السيرة، تعطى القارىء (فن التراجم) وأدب ودماثة (المترجم).. أدب التواضع ودماثة العارف طبيعة الحياة والأحياء.. إنه جدير بأن نسمعه حين يقول: حاولت أن أصور عبدالرحمن فى شجاعته وقسوته ودهائه ورقته وحزمه، وأن أقف من مختلف الأشخاص موقف الحيدة والتجرد الاعتقادى. إن العبادة العمياء أو الكراهة الصماء تشوه التصوير وتحيل الفهم، ولم أبح لنفسى الاسترسال مع الخيال والتوهم لأنى لا أرى ضرورة لأن أستغرق فى الأحلام فى وضح النهار، وإن كنت قد وسعت على نفسى بعض التوسعة فى مواقف قليلة اقتضت ذلك، ولم أعد فى تفسير الأشخاص الحقائق التاريخية الواردة فى مختلف المصادر التى رجعت إليها، ولست أدعى بعد ذلك أننى قد استوليت على الأمد، وانتهيت إلى الحق التاريخى وعندى أن الحق التاريخى مثل الحكمة المنشودة لا يسوغ الإنسان راجح الفكر أن يدعى حيازتها وحماداه أن يشعر قلبه، حبها، والأخلاص فى طلبها.

أقول إنى اخترت تقديم كتاب (صقر قريش) لأن قصة عبدالرحمن فيها من الغرابة، ولعبة الحظ، والاقبال، والإدبار، والعسر، واليسر، والمخاطرة، والمغامرة، واليأس والرجاء، والضيق والفرج والصبر، والجد، والصراع، والاحتمال، والمعاناة، والتشوف، والانتظار، والترقب، القلق، الكثير.

إنها كما يقول الأستاذ على أدهم رواية حقيقية مبوبة الفصول متعددة المناظر مختلفة الشخصيات يتضاءل إلى جانبها الكثير من بارع روايات الخيال.

***

من طرائف عبدالرحمن الداخل حين بلغ الأندلس. قدم له عند نزوله من البحر، خمر ليستر به نشاطه فرفضه وقال لمن أتوه به، (إنى أحتاج لما يزيد فى عقلى لا لما ينقصه(فارتفع فى أعينهم).

وحدث أن قدموا له بعد ذلك جارية جميلة فنظر إليها وقال (إن هذه من القلب والعين بمكان وإن أنا اشتغلت عنها بهمتى فيما أطلبه ظلمتها، وإن اشتغلت بها عما أطلبه، ظلمت همتى ولا حاجة لى بها الآن). وردها إلى صاحبها.

أقول إنها عين الصقر التى يتمتع بها بناة الدول.. وهو صقر قريش.

ومن أروع فصول الكتاب فصل (عبدالرحمن الفنان). الذى يستهله المؤلف بقوله (يحدث من حين إلى حين أن أحد النوادر الأفذاذ الذين أحرزوا السبق وحازوا البطولة فى أحد ميادين الجهاد الإنسانى ودوائر النشاط الفكرى، يحاول أن يجرب قوته فى ميدان آخر، وقد تكون المحاولة خالية من كل أهمية سوى أهمية أنها تحمل اسمه وتطبع بطابعه ليكسبها ذلك تأثيرا عجيبا وجاذبية مدهشة.

ويضرب مثلا، لذلك، فردريك الأكبر فقد كان له أشعار لا تعد من جيد الشعر فإن عرائس الشعر عاقلات لا يغرهن التيجان.. ولهذا كان فردريك الأكبر مادة لسخرية فولتير الشاعر الحقيقى.. كما كان الخليفة المستعين مادة لسخرية حاشيته..

إن الملوك والأمراء يعلمون فى قرارة نفوسهم أن بيتا من الشعر أبقى على الدهر من قصر الملك وأخلد، إنه سيروى يوم ينسى أمرهم ويطوى ذكرهم.

حين كُنت فى باريس منذ بضع سنوات ذهبت إلى زيارة بيت الشاعر فيكتور هوجو فوجدت جمعا من الناس يبغون مثلى زيارته حين كان على مقربة منه قصر لويس الرابع عشر لم يحظ بزائر.

كم من فاتحين كما يقول الأستاذ على أدهم ملأوا جنبات زمانهم جلجلة ودويا وأفعموا قلوب معاصريهم حزنا وسرورا ثم انطفأت شهرتهم وخفت صوتهم ولم ترد عنهم عادية الفناء سراياهم وكراديسهم الحاشدة. إن القوة الباقية فى الحياة، هى قوة الفكرة.. والمفكرون هم الذين يحكمون الدنيا بلا جيش ولا صولجان ولا تاج مرصع، فهم الملوك غير المتوجين وهم الغزاة بلا سيف ولا مدفع، وملوك الدنيا وقياصرة الأرض كانو يعلمون ذلك رغم أنوفهم الشماء ومكانتهم السامقة.

أقول بهذه المناسبة لم يكن الرشيد وأشباهه، سذجا حين أغدقوا على الشعراء. إنهم يعلمون أن بيتا يخلدهم وبيتا يخفضهم.

لقد ذهب سيف الدولة وبقى شعر المتنبى وذهب كافور وبقى شعر المتنبى فإذا ذكر هذا أو ذاك فعلى أن سيف الدولة ممدوح المتنبى، و «كافور» غريمه..

أسجل هذا للشاعر ولو أنى أرفض شخصية المتنبى لأنه أساء إلى مصر حين لم ينل من حاكمها مأربا.

نأتى إلى عبدالرحمن الداخل فقد أثر عنه أنه حين رأى نخلة بالرصافة أهاجت شجنه وحركت حنينه إلى ملاعب طفولته وأرض نشأته فقال:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهى فى التغرب والنوى
وطول ابتعادى عن بنّى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك فى الاقصاء والمنتأى مثلى

سـقـتـك غـوادى المزن فى المنتــأى الذى
يسح ويستـمـرى السـمـاكين بـالوبل

وانعكس هذا الحنين على سلوكه فـابتنى فى عاصمتـه الأندلسية رصافـة تشبها برصـافة جده هشام واتخذ لها قصرا رفيع العمـاد، عالى الشرفات تحيط به الحدائق الغناء وأعالى الدوح وأجرى فيـها الجداول وغرس نوافح الأزهار وفى مـقدمة هذا، نخلة أحـضرها من الشام ليـستعيـد ذكرى نشأته..

وبنى عبدالرحمن الداخل فى قرطبة المسجد الجامع وأنفق فيه ثمانين ألف دينار..

وقد كانت هذه الروح الطموح تسكن فى إهاب إنسان (أصهب خفيف شعر العارضين بوجه خال! طويل القامة نحيف الجسم له ضفيرتان، أعور أخشم).

وهو وصف المؤلف له..

ماذا تقول؟ كل ذى عاهة جبار